المقارنة الخلافية عند " أوت هايدمان" وتحوّل الأدب المقارن من المؤتلف إلى المختلف

أ(ة). ويزة غربي

جامعة البليدة 2- الجزائر

الملخّص:

انصبّ اهتمام المقارنين خلال القرن التاسع عشر، على البحث عن الكليات والمشترك بين الآداب من أجل بناء نظرية للأدب المقارن، ولكن عرف هذا الوضع تحولا كبيرا بداية من القرن العشرين، خاصة بعد تغير الأنموذج الذي استدعي تحول الدراسات المقارنة، وهو تحول آمَن بأن الوحدة ليست في التشابه والتطابق، بل في الاختلاف الذي أصبح الدرس المقارن يرصده، بما يناسب فلسفة القرن العشرين، حتى يُحقق مهمته الهامّة المتمثلة في التقريب بين الشعوب وثقافاتها، المنظور إليها على أساس الندية والمساواة، وليس على أساس التفاضل، ومن ثم أصبح الدرس المقارن يميل إلى التعامل مع المختلف، وتحمل المقارنة "أوط هايدمان" لواء هذه الدراسات التي أطلقت عليها اسم " المقارنة الخلافية".

Abstract :

Comparators' attention was concentrated during the 19th century, On the search for the common points between literatures, In order to construct a theory of comparative literature, But this situation was marked by a major shift in the beginning of the 20th century, Especially after changing the model that called for the transformation of comparative studies, It is a transformation which Believes that unity is not in similarity and conformity, but in the differences that the comparative lesson tries to find according to the philosophy of the twentieth century, So as to achieve its important objectives of bringing people and their cultures closer, this view is based on equality and not on the basis of differentiation, the comparative lesson tends to deal with differences, and comparison, "Aute Heidemann," is the leader of these study, which it called "diffirential comparison."n."

مقدمة:

عرف العالم بعد تراجع المد الاستعماري، توجّها نحو استثمار سمة الاختلاف الموجودة بين الأمم وآدابها، الناشئ عن الخصوصية الثقافية، وقد تعزّز هذا التوجه في دراسة النصوص دراسة مقارنة، بانضمام مقارنين آخرين من جنسيات مختلفة مثل "**هنري ريماك**" (Henri Remak) وغاياتاري سبيفاك (Gayatri Spivak) و**هومي بابا** (Home Bhabha)، و**إدوارد سعيد** (Edward) Said)، الذين عملوا على أن ينفتح الأدب المقارن، على ثقافات الشعوب الأخرى كالعربية والإفريقية والهندية... والحد من هيمنة المركزية الأوروبية، وأكدوا على ضرورة قراءة النص الأدبي في علاقته بأدب العالم كله، فانفتح الأدب المقارن بذلك على ثقافات العالم، بهدف الخروج من ضيق المجال الذي حصرته فيه المدرسة الوضعية، حيث أصبح البحث في العلاقات الأدبية الفعلية بين الأمم، قاصرًا عن مواكبة هذه المستجدات التي لم تعد الدراسات المقارنة في منأى عنها، فصار لزامًا عليه أن يطور من أدواته لمواجهتها؛ من أجل الكشف عن مجالات جديدة للتفاعل الثقافي الأدبي، خاصة مع تحول الأنموذج في القرن العشرين، مما يجعل الأدب المقارن تخصصا متحوّلا بامتياز، وتدفعنا هذه الظاهرة إلى البحث في أهم التحولات التي عرفها الدرس المقارن في القرن العشرين، حيث انتقل من البحث عن المشابهة والإئتلاف الذي كان يهدف إلى تأسيس نظرية للأدب المقارن، إلى الاهتمام بالمغاير والمختلف في مسعاه إلى رد الاعتبار للآخر المختلف.

فكيف انتقل الأدب المقارن من البحث عن المؤتلف إلى البحث عن المختلف؟ ما مصير المقارنة في ظل تنامي ثقافة الاختلاف؟ وكيف يتم التعامل إجرائيا مع النصوص من وجهة نظر المقارنة الخلافية؟

سعى الأدب المقارن منذ ظهوره في فرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلى تحقيق استقلاله عن بعض المجالات المعرفية التي ارتبط بها في بداية ظهوره، حتى يتأسس كعلم مستقل بذاته من حيث مجاله ومنهجه، "ويتناسب هذا معرفيا مع الإبدال الوضعي الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر تحت تأثير الفلسفة الوضعية" [1] ولكنه بدأ يتفاعل في القرن العشرين مع ثقافات العالم الذي تزامن وخروج العديد من الدول من عزلتها، إلى عالم أكثر تفتحا وتقبلا للآخر، متخليا عن مفهوم المركزية الأوروبية، حتى يُحقق مهمته الجوهرية المتمثلة في التقريب بين آداب وثقافات الشعوب، المنظور إليها على أساس التساوي وليس على أساس التفاضل، ومن ثم انتقل الدرس المقارني من مجال البحث عن التشابه واستنباطه من النصوص الأدبية، إلى البحث عن الاختلاف؛ فلم يَعُد التشابه بين الآداب سببا كافيا للدراسة المقارنة، خصوصا بعد أن أثبت مبدأ التأثير والتأثر قصوره في ذلك.

---

[1] سعيد أراق بن محمد، الأدب المقارن في ظل تحليل الخطاب النقدي، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن عمان، ط1، 2015، ص 41.

المبحث الأول: رصد التشابهات بين الآداب والتأسيس لشعرية مقارنة

ركّز الدرس المقارن التقليدي في فرنسا خلال القرن التاسع عشر، على تبيان مظاهر تَفُوُّق الأدب الفرنسي على الآداب الأخرى، بحيث تقوم الدراسة المقارنة بين الآداب التي ترتبط ببعضها بعلاقة غير متكافئة، يُذعِن فيها الأدب التابع إلى الأدب المتبوع، وهذا يتنافى مع دور الأدب المقارن الأساس، المتمثل في "التقريب بين الشعوب وخدمة الثقافة الإنسانية دون خلفيات أثنية أو جغرافية... ولكنه هدف لم يتسن له التحقيق كاملا، لأن الوجهة التي اتخذتها الدراسات المقارنة فيما بعد ابتعدت عن الأهداف الأولى التي ظهر من أجلها"[1] لقد كانت نزعة التمركز الغربية حول الذات القائمة على منظور أحادي، أكبر تحدٍ واجهه الأدب المقارن، فقد أقصت هذه النزعة المتعارضة مع روح الدراسات المقارنة، إسهام شعوب العالم في بنائه، وبالتالي تحقيق استقراره المنهجي، مما دفع المقارنين الفرنسيين المنشقّين عن المدرسة الفرنسية، إلى التفكير في إيجاد بدائل أخرى تثريه منهجيا، وتؤسس لمرحلة جديدة من مراحل تطوره، فقد تغذى" الأدب المقارن... مرجعيا من نزعة إنسانية، وتَوَجَّه بفعل هذه النزعة نحو التعامل مع الأدب بوصفه مجال اشتغال المشترك الإنساني"[2] لذلك كان البحث عن الكلّيات والمشترك بين الآداب، من أجل بناء نظرية من أهم انشغالات المقارنين، وقد أكَّد ذلك عمل

---

[1] سليم حيولة، من الأدب المقارن إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية، مجلة الآداب واللغات جامعة البليدة 2، دار التل للطباعة، ع/8، 2014، ص 128، 129.

[2] سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص 94.

المقارِن الروماني أدريان مارينو (Adrian Marino) الذي أطلق على هذه العناصر الجوهرية الكلية والمشتركة "الثوابت" (les invarriants) واعتبرها" العناصر الأساسية التي تتيح الحديث عن الأدب العالمي، وتسمح ببناء نظرية أدبية قابلة لاحتواء الأدب... الإنساني بصرف النظر عن الحدود الجغرافية"[1] "إن الحديث عن علاقة النظرية والمقارنية (comparatisme) قد أخذ حيّزا كبيرا في سنوات 1980،1990، ولكن لم تنجح أي محاولة في إرساء نظرية خاصة بالأدب المقارن، ومع ذلك يمكن أن تسجيل مجهودات "**أدريان مارينو**" في سياق مختلف تماما، دعا فيه إلى تأسيس شعرية مقارنة، تقوم على "الثوابت" التي يتم رصدها بين الآداب، في مقابل مقارنية وضعية تاريخية، لكن هذه الوضعية لا تسيطر الآن، أمام رفضه لرؤية مقارني عصره يقطعون صلاتهم بالتاريخية، أما الاختلافات التي بدأت تأخذ مكانتها في توجهات الأدب المقارن الجديدة، ليتراجع بذلك صفة الشمولية التي كان يتمسك بها "**إيتيامبل**" والتي كانت مسايرة لتلك المرحلة، ولكنها فقدت مصداقيتها الآن [2] وبقيت المدرسة النمطية (التيبولوجية) وفيَّة لهذا التوجه، الذي يسعى إلى رصد التشابهات بين الآداب، من خلال تشابه أوضاعها الاجتماعية، بغية صياغة نظرية موحدة للأدب المقارن، فقد أصبح

---

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع السابق، ص 94.

[2] Françoise Lavocat, Le Comparatisme Comme Herméneutique De La Defamiliarisation, http://www.vox-poetica.org

التساؤل يُطرح "حول إمكانية أن يستمر الأدب المقارن كما هو، فقد بدأت الشواهد تترى مُؤكدة أن ثمة تحولات نظرية، وتفريعات منهجية وحقلية قد تَعني انحلال الأدب المقارن في حقول جديدة"[1] وبدأت إثر ذلك المدرسة الفرنسية التقليدية تعرف بعض التحولات، خاصة "بعد النقد الخارجي الذي تلقاه الاتجاه التاريخي التقليدي في أمريكا، ثم النقد الداخلي الذي كتبه "**إيتيامبل**" في فرنسا، غيَّر هذا الاتجاه رؤاه وطوَّر مفاهيمه تطورا واضحا"[2] توالت هذه التطورات على يد المقارنين الفرنسيين المتأخرين، مما أدى إلى ظهور جيل جديد عمل على فك عزلة النصوص الأدبية منهجيا، من خلال فتح حقل الأدب المقارن على مستجدات الأمم الأخرى، حيث رسم له "**روني إيتيامبل**" حدودا أكثر اتساعا، بعد أن طالب بانفتاحه على آداب العالم المتعددة والمتنوعة، وقد شكّلت دعوته إلى التخلي عن صرامة المدرسة التاريخية، من خلال تجاوز مبدأ التأثير والتأثر، منعطفا هاما في مسار الأدب المقارن في القرن العشرين.

المبحث الثاني: انفتاح الأدب المقارن على ثقافات العالم

عرف الأدب المقارن تَوسعا في مجاله وإثراء في منهجه، خاصة بعد أفول الفلسفة الوضعية؛ التي تربط بين الإبداعات الأدبية بعلاقات تفاضلية، وتجعل

---

[1] الرويلي ميجان، البازغي سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 5، 2007،
ص 32.

[2] جلالي بومدين، النقد الأدبي المقارن في الوطن العربي، دار الحمراء، ط1، 2012، ص17.

الأدب المتأَثِّر في مرتبة أدنى من الأدب المُؤثِّر، بحيث أصبح دور الباحث في المقارنة الوضعية " التقريب بين مُؤَلِفين أو مُؤَلَفين بشرط الوصول إلى علاقات فعلية بينهما، فلا بدّ له من دليل على ذلك، يُجهد نفسه من أجل إثباته"[1] وقد أصبح هذا التوجه الذي يُلخّص دور الأدب المقارن في البحث عن الأدلّة التي تُثبت العلاقات الفعلية بين الآداب، مرفوضا حتى عند المقارنين الفرنسيين لأن "الشيء الأساس هو روح الانفتاح على الآداب والثقافات الأجنبية"[2] وقد تعرضت لأجل ذلك المدرسة التاريخية التقليدية "التي استمرت سيطرتها كاتجاه وحيد في الأدب المقارن إلى غاية أواسط القرن العشرين"[3] للتجاوز من طرف أبنائها الذين تمردوا على مبادئها، ومنهم "**دانييل هنري باجو**" (Daniel-Henri Pageaux)، وهومن الرواد الأوائل الذين رفضوا المفهوم البسيط للمقارنة، إذ يطرح سؤالا على المقارنين بقوله: " وأنتم أيها المقارنون، ماذا تقارنون؟" [4] وينعته بالسؤال الساذج، ويرفض أن تكون المقارنة هي هدف الأدب المقارن الوحيد، "بل الشيئ الأساس هو

---

1) Jean-Louis Backès, Le spectre de plutarque, Revue de littérature comparée, 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck ,2001,2.htm.: http://www.cairn.info

[2] هنري- باجو دانييل، الأدب العام والأدب المقارن، ترجمة غسان السيّد، اتحاد الكتاب العرب دمشق، (د.ط)(د.ت) ص 11.

[3] درويش أحمد، نظرية الأدب المقارن، تجلياتها في الوطن العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2002، ص 27.

[4] هنري- باجو دانييل، المرجع نفسه، ص9.

روح الانفتاح على الآداب والثقافات الأجنبية"[1] واستبدال نظرة الاحتقار والدونية للآخر بنظرة أكثر اعتدالا و"استبدال الدراسة المقارنة التي تركز على التشابهات والاختلافات، بالاهتمام بالبعد الأجنبي في النص الأدبي عند مؤلف معين في ثقافة معينة" [2] وهو الموقف نفسه الذي اتخذه "**إيف شوفرال**" (yves chevrel) الذي يدعو المقارنين" إلى الاهتمام بالآثار القادمة من مكان آخر (ailleurs) والمرتحِلة إلى مكان آخر والمتحدثة عن مكان آخر..." [3] فليس المقصود إجراء مقارنات بين النصوص الأدبية التي تجمعها نقاط تشابه، فالتشابهات الملاحظة بين الآداب؛ التي تضعها في موقف المتأثر و" تجعل من الغرب مركزا للتقدم يجب محاكاته، وأنّ النُسَخ المقلِّدة له لا يمكن أن تصل إلى درجة نقاء الأصل" [4] لم تعد وحدها مصوِّغا لإجراء الدراسة المقارنة بالنسبة للمدرسة الفرنسية، بقدر ما يُقصد بها مساءلة ببعض الأعمال الأدبية من ثقافات أخرى، على أساس من التكافؤ والتناظر، مما يُجسد " مفهوم فوق- قومي(trans-national) للأدب، ويؤكد"إيف شوفرال" هذا التوجه لأن "اللقاء بالآخر يقع في قلب المسعى

---

[1] هنري- باجو دانييل، المرجع السابق، ص9.

[2] Daniel-Henri Pageaux , littérature comparee et comparaison, Date de publication: 15/09/2005, http://www.poetica.org/sflgc/biblio/comparaisons.htm

[3] شوفرال إيف، الأدب المقارن، (ترجمة): عبد القادر بوزيدة، دار التنوير الجزائر، ط1، 2017، ص11.

[4] بامبرا جيرمندر ك، إعادة التفكير في الحداثة نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي، (ترجمة): ابتسام سيّد علام، حنان محمد حافظ، المركز القومي للترجمة، ط1، 2019، ص7.

المقارني... نحو الآخر ودراسة للمسعى نحو الآخر، إن المُقَارِن ليجدد باستمرار الرّهان بأن عملية الاستكشاف التي ينخرط فيها، ستمكّنه من فهم الآخر فهما أفضل... وفي نهاية المطاف، لإدراك نفسه بصورة أفضل "[1] فالانفتاح على الآخر، يُسهّل تبادل الأفكار التي تنطلق من فهم الذات أولاً من أجل فهم الآخر، فكلما استطاع الإنسان أنْ يدرك ذاته؛ كان أكثر قدرة على إدراك وفهم الآخر وبالتالي قبوله، فيتحقق الانسجام والتكامل بين المجتمعات، فلا يمكن للأدب المقارن أن يستمر ويستقر بانغلاقه على نفسه، مادام البعد العالمي يدخل ضمن أهم أهدافه، ليصبح الوعي بالآخر وسيلة لإدراك الذات المنفتحة على حدود الآخر، ويؤكد "**إيف شوفرال**" على الوظيفة الحقيقية للمقارنين الذين ينعتهم بـ"خارقي الحدود، الذين يُقيمون جسورا بين ضفاف كانت تتجاهل بعضها من قديم،... إن إقامة الجسور يعني المخاطرة بتغيير المَشَاهد التي تعودنا عليها: إن ممارسة المقارنة لا تقوم من دون إعادة النظر في الأفكار المتوارثة والقناعات الضيقة"[2] فقد شعر المقارنون الفرنسيون أنفسهم، بضرورة إعادة بناء المشهد المقارني بانتهاج موقف أكثر ليونة، يسعى إلى مد الجسور إلى آداب كانت مجهولة والتفاعل معها، مما يُحدث خلخلة في قناعات المقارنين الفرنسيين، المتمسكين بأفكارهم القديمة التي رسمت حدودا ضيقة للأدب المقارن.

---

[1] شوفرال إيف، المرجع نفسه، ص14.

[2] شوفرال إيف، المرجع السابق، ص149.

1- مسلكي المقارنين الفرنسيين لإرساء علم للمقارنة على أساس اللاّمتجانس

بدأ التوجه الرامي إلى فك الحصار عن الأدب المقارن، المضروب من طرف المدرسة التاريخية الفرنسية، يأخذ صداه عند زعماء المدرسة الفرنسية المتأخرين، إذ دعا "**فرانسيس كلودون** (francis claudon) و"**كاترين فولتينغ حداد** (catherine wolting hadad) في كتابيهما "الوجيز في الأدب المقارن" إلى الخروج من المقارنة الثنائية بمفهومها البسيط، إلى **علم المقارنة** الذي نصل إليه، من خلال توسيع دائرة المقارنة لتشمل عناصر غير متجانسة،" إن هذا الشرط ضروري لكي نرتقي من المقارنة إلى المقارنية (علم المقارنة) لكن...لماذا لا نقابل، لا نقارن بين "**بومبي**" و"**حنبعل**" أوبين الفرس والأثينيين؟ ربما يكون في هذا شيء يشبه معاداة التقاليد المترسّخة، أو معاداة ما هو طبيعي...بالإضافة إلى كون مقارنة المقارني يجب ألا تظل حبيسة الأحادية القومية، تُطرح هنا مسألة التمييز بين مقارنية عقيمة ومقارنية خصبة"[1] لقد صنَّف المؤلفان المقارنات والمقابلات الثنائية أو الثلاثية، في إطار المقارنية "**العقيمة**" التي كانت تقام بين أدبين قوميين لا غير، كما ينص عليه التقليد الفرنسي المتوارث، في حين يمكن إثراء الدراسات المقارنة بمقارنية خصبة، بتوسيع دائرة المقارنة لتشمل آداباً قومية متعددة، وكذا المقارنة بين ظواهر لا تربط بينها علاقة، لأن العلاقات الأدبية بطبيعتها لا تقف عند المتشابه فقط.

[1] فرانسيس كلودون، كاترين فولتينغ حداد، الوجيز في الأدب المقارن، (تر) عبد القادر بوزيدة، دار الحكمة الجزائر، (د ط)، 2002، ص17،18.

2- تقنية التوازي و مراعاة التناظر بين ثقافات العالم

اقتنع المقارنون في القرن العشرين، بضرورة الابتعاد عن النظرة الدونية للآخر، وقد تجسَّد هذا الانفتاح على مستوى النصوص، فأصبحنا نسمع عن التناظر بين آداب الشعوب، وعن التشابهات النمطية بين آداب العالم، وهوما دعت إليه المدارس السوسيولوجية الحديثة، وفي دعوة المدرسة الأمريكية إلى تحاور النصوص الأدبية فيما بينها، وباقي الفنون الأخرى، وإخراج النصوص من طغيان المناهج المحايثة، وكذا تبني منهجية تعكس هذا التحاور بصورة كبيرة، على رأسها دراسات التوازي التي تحفظ قيمة المحمول الثقافي في النصوص الأدبية العالمية، وقد طبقته الدراسات المقارنية مؤخرا في إطار المدرسة الفرنسية ذاتها، وكذا المدرسة الأمريكية ومدرسة دول أوروبا الشرقية، ويُعرف عندها بالتوازي التاريخي؛ الذي لا تقيمه على علاقات التأثير والتأثر، التي تنبئ عن موقف استعلائي للغرب، بل تقيمه انطلاقا من التناظر الموجود بين الآداب.

بدأت دعوة المقارنين الفرنسيين أنفسهم إلى تجاوز دراسات التأثير والتأثر، وبدأ بعض المناصرين لتوجّه الفرنسي "**روني إيتيامبل**"، الذين رفضوا تمسك المدرسة الفرنسية بالتاريخ واستبعادها للنقد "يَنْظرون شَزَرا إلى الدراسات التي تقوم بالكشف عن أوجه التقابل والتشابه"[1] والتي ما فتئ الأدب المقارن عبر مساره التاريخي يضع لها التبريرات المقنعة من أجل تفسيرها، فإذا كانت المدرسة الفرنسية

[1] نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصّي التناصية التفاعل المنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، 2010، ص 201.

تُرجعها إلى التأثير والتأثر، من مُنطلق تفاضلي بين الآداب " وهي بذلك تُعد تأكيدا لمركزية الثقافة المانحة، وتماهيا للثقافة الآخذة "[1] فإن توجهات أخرى كانت أقل صرامة منها، أقامته على أسس أكثر مرونة، وقد تجسد هذا على مستوى النصوص في تبني استراتيجيات منهجية جديدة، كالتوازيات (les paralelles) التي تسعى إلى دراسة الآداب انطلاقا من توازيها[2]، بالوقوف على بعض التقاطعات التي تعكس وضعا اجتماعيا متشابها بين الشعوب، أدت إلى وجود آداب متشابهة بينها، من باب المشترك الإنساني الذي يساهم الجميع في تأسيسه، وليس من مبدأ التعالي الذي مارسته بعض الآداب الغربية على رأسها الأدب الفرنسي، من منطلق استعماري وهي النظرة التي كرّسها الاستعمار، ولكنها أصبحت مرفوضة من بعض المقارنين الغربيين "الذين يدعون إلى رؤية أكثر انفتاحا على العالم"[3] وعلى التفاعل مع آداب بعض القوميات الأخرى كالعربية، والإفريقية، والهندية، وأمريكا الجنوبية... وكذا تبني منهج يعكس هذا التحاور بصورة كبيرة، وقد اتجهت المدرسة الفرنسية مؤخرا إلى تبنّيه، وكذا المدرسة النمطية

---

[1] وائل سيد عبد الرحيم، تلقي البنوية في النقد الغربي، نقد السرديات نموذجا، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 10،11.

[2] التوازي مصطلح مأخوذ من الرياضيات الإقليدية، ويقوم على معنى التناظر بين خطين يسيران في تقابل ولا يلتقيان، وقد استعار الأدب المقارن هذا المفهوم، فظهرت دراسات التوازي(parallelisme) الذي تؤمن بالتساوي بين آداب الشعوب، وتقيمها على الندّية خلافا لمبدأ التأثير والتأثر الذي يقيمها على أساس التفاضل والتبعية.

[3] الرويلي ميجان، البازغي سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 5، 2007، ص 31.

التي يُعرف عندها "بالتوازي التاريخي" الذي تقيمه انطلاقا من التشابهات الموجودة بين الآداب، على أساس التساوي والنِّدية بين ثقافات العالم.

لقد جاءت دراسات التوازي تجسيدا للنزعة الإنسانية وللبعد العالمي، الذي تميّز بهما الأدب المقارن في القرن العشرين عند المقارنين الفرنسيين والأمريكيين، ومقارني دول أوروبا الشرقية لقد أصبحت هذه النزعة حاضرة "في مجال الأدب المقارن باعتبارها عاملا من عوامل تسويغ مشروعية قيام الأدب المقارن، أو باعتباره أفقا من آفاقه الممكنة والمطلوبة، فأصبح الخطاب المقارني يتغذى فعلا – على المستوى المرجعي والنظري– من النزعة الإنسانية " [1] وليس المقصود النزعة الإنسانية بمفهومها التاريخي[2] الذي انتشر في القرن السادس عشر، المرتبط بدراسة النصوص الإغريقية واليونانية القديمة، التي تعتبر الإنسان مركزا للكون، ولكن مفهومها في الأدب المقارن يتعلق "بنزعة جديدة بالمقارنة مع النزعة الإنسانية السابقة... غايتها تحقيق عالم إنساني قائم على قيم الحرية والانفتاح والكرامة الإنسانية"[3] وهو المعنى الجديد الذي يتعارض مع مرتكزات المركزية الأوروبية، الذي يتعامل مع النصوص الأدبية بالنظر إلى أصولها الإنسانية المشتركة، التي تُشكل وحدة رغم تعددها. وهذا يؤسس لوضع تتقارب فيه الحضارات والشعوب،

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص 152.

[2] سادت هذه النزعة بعودة رجال الأدب إلى نظرية المحاكاة عند اليونان واللّاتين، الذين أعجبوا بما للإنسان من قيمة في نصوص أفلاطون وأرسطو وهوميروس، لما في أدبهم من نزعة إنسانية. وهي تختلف كذلك عن النزعة الإنسانية الرومانسية التي سادت في القرن الثامن عشر.

[3] سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص 150.

ويُتداول فيه مصطلحات التواصل، الحوار، والتفاعل التي تأثر بها الأدب المقارن، فأصبح يُعطي اهتماما أكبر للتفاعل الثقافي والأدبي بين الآداب الإنسانية كلها، بغض النظر عن اختلاف اللغات والقوميات، بما يرسم حدودا أكثر اتساعًا وانفتاحا للأدب المقارن؛ تجعل من دراسات التأثير تتراجع كثيرا، بعد رصد هذا التواصل بين الآداب الإنسانية، التي طالما حاولت القومية الغربية الهيمنة عليها، إذ يدفع هذا التفاعل إلى الخروج على هيمنة النموذج الغربي المتعالي، باتجاه البحث عن مقارنات مع آداب تخرج عن دائرة المركزية الأوروبية، حيث يتم التفاعل المتوازن، بما يضمن هامشا من الندية بين الآداب المقارَنة.

لقد أسهمت كل مدرسة من المدارس المقارنة بطروحاتها النظرية والمنهجية الجديدة، في خلق نوع من التوافق بين الأدب المقارن والمناهج النقدية الحديثة، وهي مرحلة من مراحل تطور الأدب المقارن "عُرِّف فيها الأدب المقارن بوصفه شعبة متعددة الاختصاصات، فقد جاءت بوصفها نتيجة لبروز مفهوم تداخل الاختصاصات الذي عرف منعطفا حاسما في ستينات وسبعينات القرن العشرين"[1] في ظل واقع نقدي عرف انتشارا واسعا للمقاربات المتعددة التخصصات (interdisciplinarité)، لمواجهة نصوص أدبية متشعّبة تُقدِّم تجارب إبداعية مركَّبة.

[1] أراق بن محمد سعيد، المرجع السابق، ص 43.

3- الأدب المقارن في القرن العشرين والتأسيس للمقارنة الخلافية

لقد أصبح المختلف هدفا للدراسات المقارنة في اتصالها بالنقد الثقافي، وهوما تطرحه المقارنة السويسرية "**أوط هايدمان**" (Ute Heidmann) في دراستها حول "المقارنة الخلافية "التي تولي العناية للمحمول الثقافي للنصوص الأدبية العالمية، إنها دعوة إلى تجاوز المُؤتلِف، والبحث في المُختلِف غير المتجانس، وهذا شرط ضروري للخروج من دائرة المقارنة بمفهومها الضيق، دون أن تجعل من أيّ أدب قومي مركزاً والآخر هامشا. وينبني مشروعها المقارني المتمثّل في "المقارنة الخلافية" (le Comparatisme Differentielle)" كنمط من المقارنة يعكس تراجع مبدأ الكونية (universialisation) الذي يحكم الظواهر الأدبية والثقافية، لصالح اختلافها(differenciation) المؤسس على الخصوصية وليس التطابق.

4 – فلسفة الاختلاف ورفض مفهوم الهوية

لقد كان اهتمام المقارنين في القرن التاسع عشر، منصبا على البحث عن معايير عالمية جامعة، من أجل وضع نظرية للأدب المقارن، وكان ذلك بالبحث عن المتشابه" فقد كان مدخل التأثير والتأثر الذي اعتمدته المدرسة الفرنسية، يفترض وجود حد معيّن من العناصر المشتركة...تسمح ببناء نظرية أدبية قابلة لاحتواء الأدب، أي كل الأدب الإنساني بصرف النظر عن الحدود الجغرافية"[1]

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص94.

أما المختلف فقد كان يقع على هامش اهتمامهم، ولكن عرف هذا الوضع تحَوُّلا إلى الاهتمام بالمختلف أكثر لأن" المختلف قد أضحى أكثر خصوبة عند دراسة الظواهر اللّغوية والأدبية والثقافية، إذ يلعب الاختلاف دورا كبيرا في ميلاد وتطور وزوال اللغة، الأدب، الثقافة التي تتشكل في إطار التبادلات والصراعات مع الآخر"[1] وقد استرعت ظاهرة الاختلاف الثقافي بين الشعوب انتباه المقارنين[2] وكلّهم يلتقون حول رفض مبدأ الهوية "لقد انطلقت فلسفة الاختلاف من رفض مفهوم الوحدة"[3] وما يرتبط بها من مفاهيم مثل: الحضور، الكونية، واهتموا بالتنوع الثقافي كظاهرة مقابلة للوحدة والهوية، لتأخذ مكانها في إطار الأدب المقارن في القرن العشرين، فقد أدركوا أنه" لا وجود لتشابه أنطولوجي يؤسس للتطابق والوحدة لأن ارتباط الأشياء بحيّزها الخاص، وتاريخها الخاص يجعل الاختلاف هو حقيقة الأشياء" [4] مما أدى بعدها إلى نقض مسألة الهوية، خاصة بعد ثورة الطلاب في 1968التي حملت معها النزوع نحو التباين والاختلاف، كفلسفة منفتحة على الغيرية ومؤسِّسة للاختلاف ومؤمنة بالأخر المغاير.

---

1) Op,citFrançoise Lavocat,

2) انتشر مفهوم الاختلاف عند مجموعة من المفكرون الغربيين، الذين آمنوا بالمختلف كبديل لمفهوم الهوية منهم: ميشال فوكو، جيل دولوز، جاك دريدا، مارتن هايدغر، فاتيمو...

3) سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص98.

4) سعيد أراق بن محمد، المرجع السابق، ص94.

5- تأثر الأدب المقارن بفكر الاختلاف

لقد تجاوزت فلسفة ما بعد الحداثة مبدأ الذات والهوية، كأسس قام عليها الأدب المقارن عند المدرسة الوضعية، وكرّست نموذجا يرفض كل أشكال النمذجة والتنميط، فهو يسعى إلى خلق نموذج واحد، وهوما رفضته فلسفة الاختلاف القائم " على مساءلة النزعة الإنسانية، أي مساءلة الأساس الذي قامت عليه فرضية الوحدة الإنسانية ووحدة الفكر الإنساني" [1] لأن الانفتاح على آداب الأمم الذي دعا إليه المقارنون ومنهم الفرنسيون، هو دعوة للتعالي عن منطق القومية الضيّق، فالمقارنة التي كانت تقوم أساسا على البحث على التشابهات والصلات الفعلية، أصبحت تسعى للبحث عن بديل جديد يتمثل في الاختلاف، وفي هذا استثمار جديد للمقارنة بما" يتماشى نسقيا مع التحولات التي عرفها الفكر الغربي الحديث، الذي أصبح مشغولا بمدح الاختلاف "[2] هكذا صار مطلب التعددية والاختلاف هاجس الكثير من المقارنين الرافضين لأحادية التفكير، لأن الفلسفة القائمة على التعددية والاختلاف بوصفها قيمة إنسانية، تساير فكر ما بعد الحداثة الذي اعتمد مقياس الثقافة كأهم معيار لتحديد الخصوصية، فتصبح هذه الأنساق الفكرية المتعددة والمنفتحة على الآخر تتفاعل مع الأنساق الفكرية الأخرى فيحدث التعايش، عكس الأنساق الأحادية المنغلقة التي تؤدي إلى فكر شمولي مركزي، كان وراء التسلط على الشعوب المهمَّشة المخالفة في الرأي وإقصائها، فاقتنع بعض

---

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع السابق، ص96.

[2] سعيد أراق بن محمد، المرجع السابق، ص103.

المفكرين والفلاسفة بضرورة إعادة بناء عالم على أساس تعدد الثقافات على اختلاف مرجعياتها، وهكذا وقع " التحول من تمجيد الاختلاف الناشئ عن نوع النظام السياسي والاقتصادي، إلى تمجيد الاختلاف الناشئ عن الخصوصية الثقافية"[1] لقد تأثّر الأدب المقارن بفلسفة الاختلاف فأصبحت غايته " ليست هي البحث عن مظاهر الإئتلاف، المترتبة عن علاقات التأثير والتأثر، بل أصبح الرهان هو تشغيل المقارنة من أجل رصد مظاهر الاختلاف...من منطلق أن الاختلاف هو الذي يؤسس الظاهرة الأدبية ويمنحها ثراءها وغناها"[2] كرد فعل على مفهوم البنية النسقية المنغلقة على ذاتها، التي يحكم عناصرها نظام الوحدة والانسجام.

6- "أوت هايدمان" وإرساء مقارنة خلافية

رفض المقارنون في القرن العشرين فكرة بناء العالم وفق نموذج أحادي وإقصاء كل الخصوصيات، وهو الموقف الذي تبنّته المقارنة "**أوت هايدمان**"[3] من خلال دعوتها "للمقارنة الخلافية" التي تعكس تحول الأدب المقارن" على مستوى

---

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع السابق، ص161.

[2] سعيد أراق بن محمد، المرجع السابق، ص161.

[3]) Ute HEIDMANN est professeure de littérature comparée à l'Université de Lausanne et responsable d'un programme de *Langues et Littératures européennes comparées*. Ses travaux portent sur l'épistémologie de la comparaison et sur les récritures antiques et modernes des mythes et des contes: https://mots.revues.org

غاياته ورهاناته وإبدالاته النظرية، فانتقل من مستوى الإيمان بوحدة الروح الإنسانية إلى مستوى الكشف عن مظاهر الاختلاف"[1] فقد تجسّد مفهوم الاختلاف في الأدب المقارن في مساهمة "**أوت هايدمان**" التي ترتكز على "الاختلافات التي طالما أهملت لصالح التشابهات، وهذا يستدعي بناء مقارنية تأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الثقافية" [2] هذا من الجانب الفكري النظري؛ حيث يقف فكر الاختلاف كمرجعية للمقارنة الخلافية، أما من الجانب المنهجي فقد انطلقت من مفهوم تعدد الاختصاصات (interdisciplinarité) الذي يتعامل " مع النص الأدبي في ضوء مجموعة من التخصصات العلمية والمعرفية، ويعني هذا أنه من الصعب بمكان الحديث عن منهجية خالصة ومستقلة"[3] وقد استثمرت " **أوت هايدمان**" هذه المفاهيم في إرساء منهجية جديدة عُرفت بالمقارنة الخلافية، و دافعت على طرحها الجديد مبينة " أهمية المقارنة الخلافية بالنسبة للأدب المقارن لذلك سعت إلى

---

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص103.

2-Raphaël Baroni, Entretien publié le 15 octobre 2006, Entretien avec Ute Heidmann et Jean-Michel Adam à l'occasion de la sortie de l'ouvrage: Sciences du texte et analyse de discours, (2005) http://www.vox-poetica.org/entretiens/intheidmann.html.

[3] حمداوي جميل، نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، مطابع الرباط نت، ط1، 2015، ص106.

تطوير المبادئ الإبستيمولوجية والمنهاجية للمقارنة الخلافية"[1] فالمقارنة الخلافية يحكمها من حيث المرجعية الفكرية فلسفة الاختلاف، ومن حيث التطبيق تعدد الاختصاصات، وتُحدد "**أوت هايدمان**" ثلاثة شروط أساسية يجب توفرها من أجل ترسيخ هذا المسعى المقارني الجديد هي:

– "ضرورة بناء المدونة التي تقوم عليها المقارنة الخلافية.

– ضرورة دراسة ما هو مختلف والتخلي عن المقارنة التي تنطلق من مفهوم الآداب العالمية، بل تنطلق من مبدأ اختلاف الآداب والثقافات.

– الابتعاد عن مقارنة النصوص التي تربط بينها علاقات سُلّمِية (Rapport non hierarchique) ومن أجل فعالية أكبر؛ فلا يجب المقارنة بين النصوص على أساس ارتباطها بعلاقات التبعية، كما تفعله المقارنة على أساس التأثير والتأثر، وبهذا يأخذ عمل" أوت هايدمان" أهميته "[2] لأنها تقارن بين النصوص على أساس التساوي والندية وليس على أساس التفاضل.

---

1) Ute Heidmann , Comparatisme et analyse du discours la comparaison différentielle comme methode , https://mots.revues.org.

2) **Damon** M AYAFFRE, Jean-Michel Adam et Ute Heidmann (éd.), Sciences du texte et analyse de discours. Enjeux d'une interdisciplinarité, https://mots.revues.org.

وتأخذ المقارنة الخلافية عند " **أوت هايدمان**" بعين الاعتبار الاختلافات الموجودة بين الثقافات المتناظرة، "وتؤسس لهذه المنهاجية في التحليل انطلاقا من أعمالها السابقة حول(les mythes et les contes) في كتابها "الشعرية المقارنة للخرافات" (Poétiques comparées des mythes) المُقدّم في إطار أعمال الملتقى الدولي المنعقد في لوزان بسويسرا في 2004 الموسوم بـ(Recherche interdisciplinaire en sciences humaines) حيث جمعت أعماله في العدد: 1-2 (2005) de la revue Études de lettres de la faculté de Lausanne) المخصص للمقاربة المتعددة الاختصاصات التي تؤمن بفلسفة المتعدد والمختلف، وما كان للأدب المقارن أن يقف بعيدا عن هذه المستجدات، لقد أفرزت "المقارنة الخلافية" من الناحية الإجرائية ما يُعرف "بتحليل الخطاب المتباين"(L'analyse du discours contrastive)(l'ADC) الذي اهتم بإظهار "فرادة النصوص" (singularité des textes) بدل إظهار "ثوابتها" (Les invariants) مما يميّزها عن باقي التطبيقات المقارنية الأخرى السابقة، وقد خصص هذا العدد لإظهار الخطوط العريضة لهذه المنهجية المقارنة القائمة على تحليل عابر

[1]- Jean-Michel Adam et Ute Heidmann, Sciences du texte et analyse de discours: enjeux d'une interdisciplinarité (Études de lettres, n° 1-2), Lausanne 2005.

للنصوص(trans)textuelle)) المؤسَّس على نموذج حركي للنصوص من منظور أنه خطاب، ويقع " تحليل الخطاب المباين" في منعطف يتقاطع فيه مع تحليل الخطاب، واللسانيات النصِّية وكذا المقاربات التباينية أو العبر ثقافية.

خاتمة:

إن اختلاف المنطلقات الفكرية والفلسفية لكل المدارس المقارنية، لم يمنع من وجود رغبة في تأسيس نظرية خاصة بالأدب المقارن، فلقد سعى إلى ذلك منذ بداية نشأته، وقد كان هذا الهدف الأسمى حلما راود كل المقارنين في كل المدارس المقارنية، ولكنه حلم ازداد تمسك المقارنين به في القرن العشرين، الذي عرف مستجدات على الصعيد العالمي، حيث زالت الإمبراطوريات الاستعمارية فاسحة المجال لعالم يؤمن بالمثقافة كأهم وسيلة لبناء الحضارة المتوازية والمتوازنة، مؤكدة الاعتراف بالآخر، انطلاقا من مبدأ مضمونه "لا إدراك للذات إلا في إدراك ذات الآخر" متبنية مبدأ العالمية، وبهذا يستعيد الأدب المقارن دوره في التقريب بين آداب وثقافات الشعوب المتباينة، التي تشكل وحدة رغم اختلافها النابع عن الخصوصية وليس عن التطابق.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أراق بن محمد سعيد، الأدب المقارن في ضوء تحليل الخطاب، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن عمان، نبلاء ناشرون الأردن عمان، ط1، 2015

2- بامبرا جيرمندر ك، إعادة التفكير في الحداثة نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي، ترجمة: إبتسام سيّد علام، حنان محمد حافظ، المركز القومي للترجمة، ط2019،1.

3- جلالي بومدين، النقد الأدبي المقارن في الوطن العربي، دار الحمراء، ط1، 2012.

4- درويش أحمد، نظرية الأدب المقارن، تجلياتها في الوطن العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2002.

5- الرويلي ميجان، البازغي سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 5، .2007

6- شوفرال إيف، الأدب المقارن، (تر): عبد القادر بوزيدة، دار التنوير الجزائر، ط1، 2017

7- فرانسيس كلودون، كاترين فولتينغ حداد، الوجيز في الأدب المقارن، (تر) عبد القادر بوزيدة، دار الحكمة الجزائر، (د ط)، .2002

8- نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصّي التناصية التفاعل المنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، .2010

9- هنري- باجو دانييل، الأدب العام والأدب المقارن، ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب دمشق، (د.ط)(د.ت)

10- وائل سيد عبد الرحيم، تلقي البنوية في النقد الغربي، نقد السرديات نموذجا، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1.

قائمة المجلات:

1- سليم حيولة، من الأدب المقارن إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية، مجلة الآداب واللغات جامعة البليدة 2. دار التل للطباعة، ع/8، 2014.

2-Jean-Louis Backès, Le spectre de plutarque, Revue de littérature comparée, 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck ,2001,2.htm.: 2http://www.cairn.info

3- Jean-Michel Adam et Ute Heidmann, Sciences du texte et analyse de discours: enjeux d'une interdisciplinarité (Études de lettres, n° 1-2), Lausanne 2005.

قائمة المواقع الإلكترونية:

1- Daniel-Henri Pageaux , littérature comparee et comparaison, Date de publication: 15/09/2005, http://www.poetica.org/sflgc/biblio/comparaisons.htm.

2- Françoise Lavocat, Le Comparatisme Comme Herméneutique De La Defamiliarisation, http://www.vox-poetica.org

مقابلات:

1-Raphaël Baroni, Entretien publié le 15 octobre 2006, Entretien avec Ute Heidmann et Jean-Michel Adam à l'occasion de la sortie de l'ouvrage: Sciences du texte et analyse de discours, (2005) http://www.vox-poetica.org/entretiens/intheidmann.html.